الياس خوري

البحث عن دور ممكن

حول دور المجلات الثقافية في حركة التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي

يستطيع الباحث ، حين يطرح على نفسه سؤالا محددا عن دور المجلات الثقافية في حركة التحرر الوطني ، أن يحيل هذا السؤال الى شبكة معقدة من الاسئلة ، تعيد بحث المفاهيم الاساسية التي يفترضها هذا العنوان ، وتتداخل مع مستويات تاريخية ، سياسية ،ايديولوجية عديدة . لكن هذه الاسئلة تقود بدورها الى نقطة مركزية اساسية، هي مسالة تكون المثقف العربي الحديث . اي ضمن اية اتجاهات او مسارات جرت عملية التكون هذه ، وقادت نحو اشكال تعبيرية جديدة في الثقافة العربية ؟ غير ان طرح مسالة التكون هذه ، لا يمكن ان يجدي الا داخل حقل الممارسة الاجتماعية الذي جرت فيه هذه العملية . هنا يعود السؤال ليربط بين طرفيه بشكل دقيق . فاذا كانت مسالة تكوّن المثقف العربي الحديث تجيب على الشق الاول من السؤال ـ دور المجلات ـ على اعتبار انها احد الاشكال التعبيرية الحديثة ، فان حقل الممارسة الاجتماعية يفترض الشق الثاني من نفس السؤال ـ العلاقة بحركة التحرر الوطني ـ .

ان المجلة الثقافية ـ التي يصدرها مثقفون بالضرورة ـ سوف تناقش من ضمن المهمات التي وجد المثقفون انفسهم امامها . واذا كانت هذه المهمات ليست من وضعهم ، فان دراسة مساهمتهم فيها هو امر يسمح لدراسة المستوى الايديولوجي والصراعات التي تخاض فيه، بالتقدم في سبيل الكشف عن عنصرين اساسيين :

١ ـ الدور الواقعي الذي تستطيع حركة ثقافية ان تلعبه في بلاد تابعة حدود هذا الدور وافاقه .

٢ ـ اوالية عملية الصدام مع الغرب الراسمالي ، التي افرزت على المستوى الايديولوجي اهم جدل داخل الحقل الايديولوجي العربي.

ان دراسة هذين العنصرين لا يمكن ان تتم من خلال المجلة الثقافية بوصفها اطارا . بل بوصفها مؤشرا . فلقد عبرت حركة الثقافة العربية الحديثة عن نفسها باكثر من شكل وطريقة . لذلك تصبح المجلة الثقافية مجرد مؤشر يسمح لنا باحاطة اولية ـ منهجية بموضوع البحث . يقود هذا الافتراض الى وضع اطار خاص لمسار هذه الدراسة . فهي ليست دراسة تطورية ، تاريخية ، تهتم بدراسة تاريخية للخط الذي قطعته حركة الثقافة العربية من خلال مجلاتها . بل هي اقل طموحا واكثر تحديدا . انها تريد البحث عن التيارات الايديولوجية الاساسية وشروط ولادتها ، لتقوم بعد ذلك باقتراح فذجة داخلية لحركة الصراع داخل المستوى الايديولوجي . من هنا، تصبح النقاط التطورية ـ التاريخية مداخل ، تسمح للتحليل بالتقدم في سبيل تقديم اقتراح منهجي اساسا . اي ان الهدف المنهجي الذي يريد ان يقدم عناصر تحليل اولية لدور المثقف في المجتمع العربي ، هو المحرك المركزي لهذه الدراسة . من هنا فنحن لا نبحث عن نتائج نهائية ، او حلول . بل نبحث عن الاسئلة التي يجب طرحها في سبيل استنطاق حركة صراع وطنية ، طبقية ، بالغة العنف ، اجوبتها الحقيقية ، التي تعيد بها الاعتبار للحقيقة العلمية ، بوصفها جدلا لعناصر تمول قصر من التحالفات الطبقية ، على ضوء مقتضيات الصراع، وعلى ضوء تطور وعي الذات ، وقدرة الطبقات الشعبية على قيادة التحالف الطبقي الوطني .

البحث عن الاصالة

١ ـ ارتبطت الاسئلة الجديدة في الحقل الايديولوجي العربي الحديث ، بثلاث ظاهرات اجتماعية كبرى .

ا ـ الاحتلال العسكري المباشر الذي مارسته اوروبا الراسمالية، والذي بدأ عمليا مع حملة بونابرت على مصر . هذا الاحتلال الذي كشف عن الهوة الكبيرة بين تقدم الغرب الصناعي و « تاخر الشرق » . والملاحظ ان هذا الاحتلال قد ادخل ، ولو بشكل اولي ، الصحافة ، بوصفها وسيلة اعلامية حديثة . (١)

ب ـ ولادة دلة محمد علي في مصر . وهي اول محاولة نهضوية حديثة حاولت بناء دولة مركزية ، مركزة على عنصرين اساسيين :الجيش الحديث والتعليم العالي . لكن جرت تصفية هذه المحاولة بشكل تدريجي ، بفضل الهجمة المباشرة التي قام بها التحالف الاوروبي العام ضدها . فبانحسار هذه المحاولة وتراجعها ، فتح الباب واسعا امام تغلغل النفوذ الاستعماري في جميع مرافق الحياة العربية .

ج ـ نمو المدن التجارية وتوسعها على حساب ضرب الحرف المحلية . اي نمو مدن التبادل (بيروت) على حساب المدن الحرفية (حلب ودمشق) حيث ولدت طبقة تجارية تلعب دور الوساطة مع الصناعات الغربية التي اجتاحت المنطقة (٢) . هنا اتى التعليم الحديث والجامعة ، بواسطة ارساليات اجنبية ، ساهمت في غرس بذور الاجتياح الاستعماري للمنطقة ، وزرعت بذور الاستعمار الثقافي الذي لا نزال نعاني منه الى الان .

تحجب هذه الظاهرات الثلاث ، بالشكل التصنيفي السريع الذي قدمناها به ، العديد من ظواهر التحولات الاقتصادية والاجتماعية الهامة ، التي نتجت عن ثورات وحروب وانتفاضات شعبية ، لم تستطع مقاومة منطق الراسمالية الغربية الصاعدة والتي تجتاح العالم. ففرضت التبعية المطلقة على المنطقة وتجري تخريب اقتصادها لمصلحة نمو راسمالي تابع ، ياخذ من الراسمالية مظهرها الاستهلاكي ـ

التبادلي ـ ويفرض غيابا للتضييع الذي هو اساس اية نهضة فعلية (٣) . من هنا كان الطابع التهميشي الذي فرض على هذا المجتمع ليبقى خارج القدرة على تقرير مصيره بنفسه .

هذا الطابع الصدامي المباشر فرض على النهضة العامة طابعين متلازمين :

١ ـ ان تنشأ داخل توجه دولة مركزية . والنموذج الامثل هو التوجه النهضوي لدولة محمد علي ، حيث قامت الدولة بضبط عمليتي التنفيذ والثقافة ، ضبطا شبه كامل .

٢ ـ التطلع الى نموذج التقدم « الغربي » ابتداء بتنظيم الجيش وحتى التعليم العالي (٤)

ضمن هذا التوجه العام ، كان نموذج المثقف هو المثقف التقليدي ـ علم الدين ـ الذي يضع نفسه في خدمة الدولة . ويعطينا نموذج رفاعة رافع الطهطاوي مثالا حيا وبالغ الدلالة على قدرة التكييف مع مستلزمات نهضة اولوية (٥) .

ان صيحة النهضة الاولى التي اطلقها الطهطاوي ورجال البعثات الذين ارسلهم محمد علي للدراسة في اوروبا ، اثمرت اجابات محددة على مستلزمات نهضة وطنية عامة . الترجمة ، معاهد التعليم العليا الحديثة . تنظيم الجيش الحديث وقادت الى طرح اسئلة محددة تمس المستوى الايديولوجي من داخل عناصره السائدة . اي ان الدولة الاقطاعية المركزية التي بناها محمد علي لم تطرح في بنيتها الطبقية والسياسية اسئلة شاملة تمس الموروث الثقافي ، بل بقي تعاملها مع هذا الموروث السائد من ضمن اعادة تنظيمه ليصبح اكثر قابلية لخدمة هذه الدولة واهدافها الطموحة ، وادخلت عليه مفاهيم جديدة ، هي ثمرة الاحتكاك مع النموذج الغربي الذي سيصبح الخطر الوحيد على هذه الدولة . تجعل هذه المرحلة المبكرة دلالة هامة على المسار الذي قد تكون في داخله المثقف . فهو يتكون من الداخل، اي من مهمات محددة تفرضها ضرورات بناء دولة . وهو يقوم بالعلاقة الوثيقة مع هذه الدولة بمحاولة تحريفية تطال العديد من مرافق الحياة ، دون ان تحدث خلخلة فكرية حادة ، اي دون ان يبدأ الفرز الايديولوجي العنيف الذي سيحصل لاحقا كمؤشر لصراعات طبقية عنيفة، من ضمن مهمة التحرر الوطني . لكن النهاية المبكرة لدولة محمد علي ، تعرضها للهجمة الاوروبية الشاملة ، ومن ثم تفسخها الداخلي، سوف يحكم على هذه التجربة الاولى بالفشل . وستبقى العامل الاساسي الذي ستنمو في ظلاله دعوات الاصلاح والنهضة التي سوف تخاض الان خارج السلطة بل ضدها (٦) .

يقيم هشام شرابي في خاتمة بحثه « المثقفون العرب والغرب » مقارنة بين النهضة اليابانية التي تمثلت في الشعار التاليفي الاتي: « الاخلاق الشرقية والعلوم الغربية » وبين النهضة العربية التي لم تتحقق لانها « لم تستطع بقية المحافظة على القيم التقليدية وتبني الوسائل العلمية ان تتجنب التناقضات المتاصلة في هذا النمط من المسعى » . مهملا النقطة الاساسية وهي تعرض المنطقة العربية للغزو الامبريالي المبكر الذي كان في اساسه عدم السماح لهذا التطور . (٧)

اذا كانت هذه المحاولة الاولى قد سقطت بفعل العديد من العوامل ـ العامل الخارجي ـ الذي هو في اساس اخلالها الداخلي ، فانها قدمت العديد من النماذج الواقعية ـ السياسية والثقافية ، للقدرة على تمثل مقتضيات الخروج من الانماط السائدة . وتعطي الوقائع المصرية وهي الجريدة الرسمية التي انشأتها الدولة ، قدرة على الاستفادة من كل مقتضيات العناصر الثقافية الحديثة ، حين تحولت بفضل الطهطاوي وجماعته الى منبر فكري ، ثقافي ، بالاضافة الى كونها جريدة الدولة الرسمية .

لقد كان الاحتلال الانكليزي لمصر ، والتغلل الاستعماري في بقية اجزاء المنطقة العربية ، احتلالا مباشرا (تونس ، الجزائر) وغير مباشر (لبنان) هو الحافز المركزي لارتفاع الاصوات المطالبة بالخروج من دوامة الاحتلال الى افق استقلالي وطني . ونتيجة للعوامل المتشابكة في تكوين الخريطة الطبقية والثقافية ، فقد كان هناك ردان اساسيان على هذا الواقع .

الرد التقليدي

وهذه ليست تسمية مطابقة ، انما نستعملها هنا للاشارة الى احد اكثر اشكال الرد فعالية ، وهو الرد الذي يحتمي بالدين وبالتراث بوصفهما عاملين موحدين ايديولوجيا واجتماعيا . وقد اتسم هذا الرد اساسا بتعبيره عن الفئات الاجتماعية والطبقات التي لم يستطع الاحتلال تحويل المجاري الرئيسية في نمط حياتها ، او التي دمرها بشكل كامل . كما اتسم بكون مثقفيه ، هم المثقفين العضويين التقليديين منذ زمن بعيد ، والقادرون على تعبئته باسم قيم لا تزال فاعلة ومحركة .

الرد الحديث

وهو محاولة التمثل لجميع القيم الليبرالية الغربية واعتبارها مقياسا اساسيا في عملية النهضة الوطنية المفترضة . وقد حاول هذا التيار الذي نما اساسا في كنف الارساليات الاجنبية وفي معاهدها العالية ادخال قيم العلوم الوضعية في الفكر العربي الحديث .

قد يبدو هذا التقسيم مفرطا في عموميته ، لانه لا يميز داخل هذين الردين ، الفروقات والاختلافات الكبيرة التي تقسمها ايضا . انه مجرد تقسيم وصفي ، يأخذ الظاهرة الخارجية دون ان يحللها ودون ان يعيد انتاجها نظريا على ضوء تحليل طبقي دقيق . لكن هذا المؤشر الوضعي يسمح برصد حركة جذب عنيفة تعرض لها المستوى الايديولوجي فيما هو يحاول طرح اسئلته (٨) . تتعدد داخل هذين المستويين المواقف . ففي حين ينطلق الكواكبي من ضرورة الاستقلال العربي وعودة الخلافة الى العرب ، تولد حركة الاخوان المسلمين من نفس التيار . وفي حين تقود عملية شبلي الشميل الى نوع من الدفاع عن السيطرة الانكليزية ، يرتفع صوت سلامة موسى داعيا الى الاشتراكية ، وابا للكثير من الحركات الثورية العربية .

ان عدم مطابقة النمذجة ، تعود في الدرجة الاولى الى صعوبة اية نمذجة لمرحلة مليئة بالصراعات ، ومتضاربة ، مرحلة تفتت اجتماعية ، تفقد فيها مقولة غدامشي « للمثقف العضوي » مدلولاتها المباشرة ، لتصبح مؤشرا للعديد من اشكال العضوية التي تبقى في جدل مع نفسها ، طالما بقيت الاسئلة تطرح كرد فعل ، يفترض نموذجا متقدما .

اذا حاولنا ان نتوقف في هذا التحليل عند هذه النقطة، لنقترح نمذجة اخرى تبدو اكثر مطابقة . مثقف المدنية ،اي مثقف الاشكال الراسمالية الحديثة التي بدأت تغزو المنطقة ـ التحديث والتعلق بالنموذج الغربي . ومثقف الريف اي مثقف المناطق التقليدية التي لم تمسها راسمالية المراكز الامبريالية الغازية ـ الاصالة ، التراث ، الدين ، العودة الى الاسلام . قد تبدو هذه النمذجة اكثر قدرة على الاقناع ، لانها تنطلق من فرضية تضاد بين المدينة والريف ، او من فرضية تطور غير متناسق بينهما . لكنها في الواقع تصطدم بعقبتين :

١ ـ صعوبة التمييز الحقيقي على هذا المستوى بين المدينة والريف . فالمدينة الجديدة التي توسعت واخذت ملامحها الجديدة مع اشكال الهيمنة الامبريالية اصبحت امتدادا للريف . اي ان علاقات الريف امتدت لتطبع المدينة بطابعها ، ولتقيم تميزا مصطنعا بين علاقات المدينة وعلاقات الريف . ان هذه الحقيقة التي نستخلصها من تحليل اولي لواقع هذا الانقسام لا تلغيه بل تلغي شكله الثقافي المفترض في هذه النمذجة .

٢ ـ لقد كانت المدة الحرفية ، اكثر المناطق تضررا بالشكل الاقتصادي للهيمنة الامبريالية . لذلك ارتفعت فيها دعوات الاصولية والتراث والرد على الهجمة الغربية .

لكن يبقى هذان النموذجان كافتراضين ممكنين ، يسمحان بتلمس اولي لمازق البحث الايديولوجي عن مخرج من حالة الخضوع للهيمنة الخارجية ، لكنهما يبقيان غير مطابقين ، لانهما يأخذان من الظاهرة احد اشكالها ، دون القدرة على الاحاطة بها بشكل كامل .

ان مازق هذين الاقتراحين ، هو مازق منهجي . فهما يستعيران في اخر تحليل نموذجا جاهزا ويحاولان تطبيقه في بلاد لم تنشا فيها بورجوازية وطنية تقود عملية الاستقلال الوطني ، وتستكمل مهام التصنيع والبناء الديمقراطي . لذلك كانت الحاجة فيها ماسة الى جبهة عريضة توحد فلاحي الريف بعمال وصغار بورجوازيي المدن، لتقوم هي بهذه المهام (٩) .

ان هذه النماذج الثقافية التي حاولت بنسب متفاوتة ان تطرح مسالة الاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي يمكن اعادة تصنيفها من داخل المهمات التي طرحتها على نفسها . اذ من داخل هذه المهمات، وفي المقترب الاساسي الذي افترض يمكن للتصنيف العلمي ان يتقدم في اتجاه اكثر دقة .

قد تصلح شخصية جمال الدين الافغاني ، بنزعتها التراجيدية، مثالا حيا لدراسة هذا المقترب . فعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف شخصيته ، استطاع الافغاني ان يحول منزله في القاهرة الى جامعة حقيقية ، يتلقى طلابها العلم ويخططون او يستشرفون ممارسة سياسية نضالية محددة ، ثم كانت « العروة الوثقى » (١٠) اهم المجلات العربية واكثرها دلالة تاريخية التي اصدرها الافغاني بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده في باريس ، الصوت المركزي الذي استطاع ان يطرح الاسئلة التي تواجه نهضة الشرق . نستطيع ان نلخص هذه الاسئلة في ثلاثة محاور مركزية :

١ ـ مفهوم الشرق ، وضرورة استقلاله . ومفهوم القوميات المتعددة التي لا تمنع وحدته .

٢ ـ يقيم الافغاني هذه الوحدة على اساس الجامعة الاسلامية ، التي هي جامعة الشعوب المضطهدة والمسحوقة في مواجهة الغرب.

٣ ـ الدعوة الى الاصالة الاسلامية ، التي لا تتنافى مع العلم الحديث، بل تحمل القدرة على استيعابه في داخلها .

نستطيع معالجة هذه المحاور الثلاثة من اكثر من وجهة :

نستطيع ان نضع مقياسا حدثا ، علما ، ونقول انها ليست اكثر من محاولة توفيقية جديدة ، او نذهب مذهب هاملتون جب في ان هذه الحركة لم تطرح اسئلة جذرية على معتقداتها الاساسية .

ونستطيع كذلك النظر اليها من موقع تناقضاتها الداخلية ،وعدم تماسكها المنطقي فيما ذهبت اليه ، هجوم على المادية ثم كيل المديح للاشتراكية . ونحكم عليها من هذه الزاوية « العلمية » بعدم التماسك المنهجي الصارم وبالتالي بعدم الفعالية الحقيقية .

قد يكون هناك الكثير من الصحة المنطقية في هذين الموقفين .لكن مقتلهما الاساسي ، هو في عدم قدرتهما على التعامل مع هذه الظاهرة الايديولوجية ، بوصفها ظاهرة تاريخية . اذ ان دراسة هذه الظاهرة تاريخيا تفترض دراسة ظروف هزيمتها ، والمؤشرات التي نستخدمها من هذه الهزيمة . فلقد لعبت دورا سياسيا ،ايديولوجيا باعتبارها موحدا اجتماعيا لجميع طبقات الامة ذات المصلحة في رفض الاحتلال الغربي . هذا العنصر ، عنصر التوحيد الاجتماعي ، يفترض نظريا اصلاحات من طبيعة اسيوية ـ المستبد العادل ـ وتساقطه هو صدى محاولة الخروج من الواقع السابق نتيجة الحصار والتطويق الامبرياليين . لذلك كانت هذه الدعوة تفتقد عامودها الفقري بعد فشل الاصلاح الاسيوي (محمد علي) وهزيمة الثورة العسكرية (احمد عرابي) . من هنا طابعها التراجيدي الهائل وعضويتها ، اللاصقة على مجتمع يتململ بحثا عن مخارج من مازق تاريخي فرض عليه . لذلك كان للافغاني اثر اجتماعي وسياسي بالغ الخطورة (١١) . ليست خطورة هذا الاثر المباشرة هي المسالة الاساسية وحدها بل انه كان صوتا موحدا، انفجرت بفشل دعوته وطموحاته الاصلاحية الثورية ، تلك الوحدة العضوية التي تبحث عنها الممارسة الايديولوجية النضالية، فجمعية العروة الوثقى التي كانت هذه المجلة التي تصدر في باريس ناطقة باسمها انتهى دورها بانشطار فكر الافغاني فيما هو في ذروة الفشل ميتا في الاستانة وطبعت الفكر العربي الحديث بطابعها الشمولي .

ان التقييم السياسي لهذه المرحلة لا بد وان يلاحظ ذلك الوعي الهائل بضرورة الخلاص الوطني الذي تجسد على المستوى الثقافي بمحاولتين : رفاعة الطهطاوي ،حيث كان التعليم ونشر الثقافة ميدان فعاليته المباشرة ارتباطا بالسلطة . والافغاني الذي يعبر عن فراغ في السلطة الوطنية وعن عدم القدرة على توحيد الشعب . ويشير فشل هاتين المحاولتين الى عنف الاحتلال الراسمالي ويؤشر لنموذجية جديدة فرضت نفسها على جميع مستويات الواقع العربي .

هل يعني هذا ان دور العروة الوثقى المطابق ـ التراجيدي ، قد شغر بانتهاء هذه المجلة ؟

تصعب الاجابة على هذا السؤال بسبب تشابك المرحلة الجديدة، مرحلة الانقسامات الطبقية والصراعات التي لا تزال مرتبطة بمهام المرحلة .

فنحن حين اخذنا نموذج « العروة الوثقى » لم يكن غائبا عن تصورنا غياب بيروت عن هذه الصورة . فبيروت في هذه المرحلة كانت لا تزال اسيرة السيطرة العثمانية المباشرة . وكانت الثقافة فيها مرتبطة اوثق ارتباط بالارساليات الاجنبية . لذلك كانت اصواتها الثقافية تفترض النهضة القومية ضمن تصور ليبرالي . لكن هذا التصور لم يكن وحده في الساحة . فالثقافة « الاسلامية » كانت لا تزال عميقة الصلة بفئات المثقفين . حيث ستخرج من لبنان مجلة «المنار» التي سوف تأخذ على عاتقها تكملة رسالة محمد عبده من الموقع السلفي التقليدي . ومن جموع المثقفين السوريين واللبنانيين المهاجرين الى مصر سوف ترتفع الدعوات الليبرالية والعلمية ، وسوف يبدا البحث المضني عن المطابقة الجديدة مع فكر سلامة موسى والفكر الماركسي المعاصر من بعده .

ان الهاجس الاساسي الذي يسم دور المثقف في حركة التحرر الوطني هو بحثه عن هذه المطابقة ، عن عضويته داخل الحركة الوطنية. وعن تلك الجبهة العريضة التي ستقود مرحلة الاستقلال . في هذا الواقع الذي تفتته الامبريالية وتعيد الراسمالية صياغة خريطته الطبقية ، كان الفكر الوطني يبحث بالتعلم والممارسة عن حلول جذرية جديدة ، تاخذ مكان الطرح المركزي الذي قدمه الافغاني . من هنا التعدد ، ومن هنا الصراعات ، ومن هنا ايضا تلك العلاقة المترجرجة بين ان تكون مثقفا عضويا ، او ان تبقى تحمل قيما لا تطابق . الفكر الوحيد الاقرب الى المطابقة كان فكر ميشال شيحا ومن بعده الندوة اللبنانية التي تصدر مجلة بهذا الاسم . حيث كان هذا الفكر وثيق الارتباط بسلطة التجار الذين امسكوا بالسلطة منذ الاستقلال. فجاء فكر الندوة مع شيحا اساسا مطابقا لمصلحة اقلية طبقية تعيد تنظيم هيكل اجتماعي ليطابق مصالحها الاقتصادية والطائفية .

البحث عن نقاط الارتكاز

ان التعدد الذي اشرنا اليه هو تعبير عن مسيرة ثقافية عامة . مسيرة محاولة الوصول الى فكر يوحد تحت شعار نهضة وطنية شاملة . واذا كانت مقدمات هذا الفكر ـ جبران خليل جبران في نبرته الاجتماعية وفي تطلعه الفني الشامل ـ فرح انطون في نظرته الاشتراكية ـ شبلي الشميل في فكره العلمي ـ قد عبرت عن ازدواجية

في التطلع ، عدم القدرة على التخلص من النموذج الغربي ، فانها في المقابل ساهمت ايجابيا في حركة صراع وطني ـ طبقي لا تزال تخاض الى اليوم . ان هذا الفكر هو تعبير عن تطلع نحو نقطة ارتكاز ثابتة تتجاوز اوتوقراطية الدولة وبيروقراطيتها الى حركة جماهيرية .

حين نطرح عوامل ومسار تطور حركة المثقفين ، وارتباطها الدائم بحركة الطبقات الاجتماعية فاننا نطرح في الواقع خطوطا وطروحات فكرية متعددة وجدت في مجلات ثقافية منابر لها . فاصبحت هذه المجلات عناوين فكرية لمرحلة كاملة .

التعدد وخطوط الصراع

قد يبدو هذا التحليل خارج موضوع بحثنا . فموضوعنا هو عن لبنان ، ونحن نتكلم عن حركة الثقافة العربية باسرها . ان هذا الخروج عن الموضوع ، هو الموضوع نفسه ، فالثقافة « اللبنانية » الخاصة ثقافة غير موجودة اساسا . هناك فكر نظري انتج ايديولوجية الطبقة السائدة ، لكنه لا علاقة له بحركة التحرر العربية الا سلبا . وهو على اي حال لم يشكل مجرى رئيسيا مؤثرا في حركة هذه الثقافة . من هنا فوحدة السياق الايديولوجية العامة ، جعلت من الثقافة في بيروت امتدادا داخل حقل الثقافة العربية عامة . لذلك كان هذا المدخل ضروريا لفهم ادالية محاولة الانخراط التي تحاولها التيارات الثقافية هنا .

المجلة الثقافية هي تيار او اكثر من تيار واحد ، تصطلح على رؤية عامة ، وعلى دور تريد ان تلعبه . لذلك فهي تشكل وحدة سياق في طرح المسائل التي تتناولها . او في بعض الحالات النادرة تشكل ارض حوار اكثر من تيار واحد يجري لقاؤها على فهم محدد لمرحلة معينة . هكذا بشكل عام تستطيع المجلة الثقافية ان تلعب دورا في الحركة الوطنية بشكل سياسي مباشر او ان تلعب هذا الدور بشكل ثقافي ، فني ، فتساهم في بلورة رؤية محددة او بعض عناصر هذه الرؤية .

اذا كان هذا التحديد صحيحا او قريبا من الصحة ، فان المجلة الثقافية تكون احدى الوسائل التي تستخدمها حركة الصراعات الطبقية في بلورة مفاهيمها المتضاربة ووسيلة اتصال واسعة داخل وسط معين ، يضيق او يتسع تبعا لاسلوبية المعالجة ولارتفاع المستوى الثقافي العام .

المجلات الثقافية في بيروت كثيرة العدد . لان بيروت ، بوصفها وسيطا تجاريا تلعب ايضا دور الوسيط الثقافي . كما ان الحرية النسبية التي فرضها واقع الانقسامات الطائفية اللبنانية يسمح بحرية ثقافية وسياسية . هذا دون ان ننسى الدور الذي لعبته الحركة الوطنية في توسيع مدى هذه الحرية . لذلك كانت هذه المدينة ميدان صراع ثقافي ـ سياسي ، تشارك فيه اطراف عربية مختلفة . وكانت محاولة قراءة ادالية التداخل الايديولوجي التي يقوم بها المثقفون مع حركة الصراعات الطبقية ـ الوطنية تحمل دلالات عامة .

اذا حاولنا دراسة المجلات الثقافية اللبنانية منذ الاربعينات لاكتشفنا انها تمثل واقع التعدد الايديولوجي العربي .

لكننا هنا سوف نقتصر على نماذج من اهم هذه المجلات ، لندرس ادالية الانخراط التي تكلمنا عنها سابقا .

ـ ١ ـ

في العدد الاول من مجلة « الطريق » (١٢) نقرأ اول محاولة متكاملة لتحديد دور المثقف . ففي مقال موقع باسم « باحث عربي » حول « دور المثقفين العرب في الحياة القومية العربية » يطرح البحث اشكالية واضحة منذ البداية ، يتساءل « هل للمثقفين العرب مهمة قائمة بذاتها في المجتمع يقومون بها كجماعة مستقلة عن بقية جماعات الامة ؟ » . حول هذا السؤال تأتي الاجابة الواضحة التي تحاول لاول مرة فهم علاقة المثقف العضوية بالطبقات الاجتماعية : «فكل مثقف عندما يفكر او يتكلم او يكتب انما يفصح في الواقع عن عقلية طبقة او جماعة اخرى من اعضاء مجتمعه ويمثل مصالحها ويخدم هذه المصالح » .

ثم يحلل هذا المصطلح باربعة عناصر :

ا ـ تضم الجماعة المثقفة عناصر من جميع الطبقات . فهي ليست طبقة .

ب ـ يعزى زهم التعالي الثقافي الى انخفاض مستوى التعليم العام في المجتمع .

ج ـ ليس للمثقفين اهداف ومصالح مستقلة .

د ـ يطرحون المسائل بطرائق مختلفة تخدم اطراف الصراع .

حول هذا التحليل ـ رغم تبسيطيته ، الذي يجب عدم النظر اليها بشكل مطلق ، بل النظر اليها في الغرض الذي كتبته فيه ، تحدد مجلة « الطريق » منذ العدد الاول لصدورها خطا فكريا واضحا هي التزامه لمصالح الطبقة العاملة ، وبقية الفئات الشعبية . وكتعبير عن هذا الالتزام نقرأ على صفحاتها مقالات رئيف خوري وتعريفه لاثر الثورة الفرنسية في الفكر العربي الحديث ، ونقرأ لعمر فاخوري احد اكبر الادباء اللبنانيين في الجيل السابق ، ويكتب انطون ثابت ، وكوكبة من المفكرين والادباء الطليعيين ، الذين يخطون في الثقافة العربية محاولات جديدة لكيفية فهم المثقف لدوره الاجتماعي ، والامر الذي يجعل دلالة هوكون هذه المجلة قد صدرت بهدف سياسي ـ ثقافي مزدوج ، فهي لا تفصل الثقافة عن النضال السياسي ، بل تعتبرهما وحدة عضوية .

لا نحاول هنا تقييما شاملا لدور مجلة « الطريق » لكننا نستطيع ان نرفع اربع ملاحظات :

١ ـ لقد مثلت هذه المجلة التيار الماركسي في الفكر العربي . هذا التيار الذي حاول منذ البداية التعريف بالحركة الثورية العالمية ، وطرح مسالة النضال الوطني المركزية ، بوصفها جزءا من مهمات هذه الثورة . وقد قدمت تعريفا بالفكر الماركسي ، في اللغة العربية ، يتجاوز التعريفات التي قدم بها هذا الفكر من قبل .

٢ ـ ركزت المجلة منذ بداية صدورها على انفتاح ثقافي ، على الاداب الاجنبية . فمنذ اعدادها الاولى نقرأ ادبا اجنبيا مترجما ينتمي الى تيار الواقعية الاشتراكية ، غوركي ، اهنبورغ .. كما جرى التركيز على قيم الحرية في الثورة الفرنسية .

٣ ـ منذ اعدادها الاولى ، وهي تفتح صفحاتها لقراءات من التراث العربي ، كليلة ودمنة ، الشريف الرضي ، العقد الفريد . الخ ... هذا التوجه ، يرفد التوجيهين الاولين بقاعدته التراثية ، حيث لا يصبح الانفتاح مجدد اغتراب ثقافي لا جذور له .

٤ ـ طرح مسالة الاستقلال الوطني والنضال الاجتماعي بشكل متناسق . واذا كان نقاش المقتربات التي قدمتها مجلة الطريق لهذه المسالة تدخل في نطاق مناقشة الخط السياسي للحزب الشيوعي الذي يصدرها ، فاننا نشير فقط الى هذا الطرح والى العنصر الايجابي المبدئي الذي يقدمه هذا الربط .

ان هذه التوجهات التي تقود خط مجلة ثقافية تطرح مسالة قدرتها على المساهمة في حركة الصراع الوطني ، وكانها مسالة محلولة سلفا . غير ان المسالة الاساسية كانت ولا تزال بالنسبة للفكر الماركسي هي في قدراته على صياغة خط وطني ينطلق من الصراعات الطبقية المحددة ليستشرف الافق الجبهوي الذي يوحد جمع الطبقات الوطنية في توجه وحدوي عربي هو المخرج الوحيد من التبعية ومن عوامل التفتيت الذي تفترضها .

ـ ٢ ـ

قد تكون افتتاحية د . سهيل ادريس للعـــدد الاول من مجلة « الاداب » (١٢) أكثر الافتتاحيات تحديدا للهدف المفترض لمجلة ثقافية. فهو يضع المجلة التي يشرف على تحريرها في صميم الهموم القوميه، « ينبغي على الادب أن لا يكون منعزلا عن المجتمع الذي يعيش فيه ،فان الادب الذي ندعو اليه المجلة وتنسجه هو ادب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه » .ثم يضع هدفا ادبيا واضحا « النهوض بالحركة القصصيه ، ودفع الاقلام الجديدة الى الكتابة » . ولا ينسى النموذج . « وهذا النشاط جميعه ، جدير به ان يعطي الاجنبي فكرة صحيحه عن الادب العربي الحديث ومشاركتـــه في الحركة الادبيـة العالميـة » .

حول هذا الهدف ، سوف تصدر مجلة الاداب ، مرتبطة بشكـل وثيق بالتيار القومي العربي ، الذي سيبلور تياراً وجهته المحددة مع صعـود الحركـة الناصريـة بوصفهـا حركـة وحدويـة معاديـة للاستعمار .

لذلك بقيت « الاداب » مخلصة لهذا التوجه العام . اطار قومي عريض معاد للاستعمار . وحاولت من ضمنه المساهمة في هذه الحركة عبر اقلام كتـاب تعاقبوا على الكتابة فيها . ومن خلال نتاج روائـي وقصصي وشعري . وعلى صفحاتها خيضت المعارك الادبية ، لتصبـح فيمـا بعد منبرا للجبهـة الفنية الواقعيه ، بعـد ان توقفت الحملات المتبادلة والصراعات بيـن الشيوعيين والقوميين . اما مساهمتهـا في حمل الترجمة ، فقـد تمركزت حول الفكر الوجودي الفرنسي ،سارتر، بوفوار ، كامـو وغيرهم .

في مجلة الاداب ، كان التوجه واضحا . موقف توفيقيمنالتراث، ودعوة الى التغيير الاجتماعي والتحديث . وصوت الهموم الوطنية وقد اخذت اشكـالا مختلفـة وبقيت في اطار تقدمي التطلعات ، لكنـــه محافظ في نظرته الاساسية .

ـ ٣ ـ

حملت مجلة « شعر » (١٤) هم التجديد الجذري منذ البداية ، فهي التي اوصلت بدايات التحول في بنية القصيدة العربيةالى تجديد كامل ، ينطلق من الانجاز الشعري الغربي ، ليقـوم بتثوير الادوات الفنيـة في اللغـة العربية . فالشعر الجديد ، يتحلق حول رمـوز حضاريـة قديمة ، رمز البعث بشكل اساسي ـ لينقل هموم الثقافـة العربيـة في بحثها عن وجهتها الجديدة .

ان اهمية مجلة « شعر » هي في كونها دفعت المقدمات النظرية الى نهايتهـا المنطقية ، تابعت الخط التجديدي الجبراني في المستوى الشكلـي مع خفوت واضح للمسألـة الاجتماعية التي بقيت مضمـرة داخل ارادة التجاوز . لذلك كـان لا بـد لهذه الحركة من الوصول الى الطريق المسدود . اما الذهاب بعيدا في اكتشاف الذات ، وصـولا الى موقف جذري متكامل لا يتوقف عند همّ تعبيري ، بل يتجاوزه في عودة الى الذات التاريخيـة ، واما التوقف عن الصدور .

ان الموقف الليبرالي الواضح الذي انطلقت منه مجلة شعر كان في اساس مأزقها . فالخدمـات التي قدمتها للثقافة العربية بالغـة الاهمية ، انفتاح ثقافي مذهل ، طرح العديد من الاسئلة ، محاولـة كسر جميع اشكال الرتابة . لكن الموقف الليبرالي ، حيـن لا يتجذر في اتجـاه ثوري ، يقف امـام مأزقه . مأزق الحداثة التي تفقـد موطـىء قدميهـا .

في الشعر ، يصعب الحديث عن دور سياسي مباشر الا فيلحظات الانفجارات الثورية الكبرى . فالشعـر يبـقى جزءا من المستـوى الايديولوجي الذي يساهم في حركة الصراعات الطبقية . لكن مساهمتـه ليست دائمـا مباشرة . ليس هذا واقع مجلة شعر . لكنهـا حيـن افترضت الشعر معرفة ، لم تذهب بهذا الافتراض حتـى النهاية .

الممارسة الثوريه ، داخل هموم الطبقات المسحوقة . فبقيت الحداثـة تنتظـر وهي تحاول الامتداد حتى وصلت الى الخيار الحتمي ، خيـار الراديكاليـة .

ان الخروج من المازق الليبرالي ، عبر اختيار الطريق الراديكالي، هو الاضافـة التي تقدمهـا مجله « مواقف » (١٥) فهذه المجله ، علـى رغم تعدد المواقف فيها ، والارضيه الليبرالية التي تنطلق منها ،تبتعد في سبيل الوصول الى موقف راديكالي ، يحول في الواقع اضافتهـا الابداعيـة المتميزة في ادبنـا المعاصر . اي ان الممارسـة النقديـة الجذريـه التي حاولتهـا هذه المجلـة منذ صدورهـا هي تعبير عـن محاولة انخراط جذريـه داخل المدى الثوري الذي فتحته حركة النضال الفلسطينية المسلحـة . لكن هذا الانخراط ، كـان من طبيعـة ثقافية خاصة . من هنـا كانت الثقافـة الجديدة مطالبة بتخطي الكثير مـن الحواجز في سبيل الوصول الى فهم الواقع والعمل على تغييره .

في هذا العرض السريع الذي قدمناه ، لاهم المجلات الثقافيه التي تصدر في بيروت ، والتي تشكل عناصر استقطاب فكرية وايديولوجيه هامة ، جرى اهمال الكثير من النقاط التفصيله التـي لا تزال تحتاج الى دراسـة خاصة بها . الذي حاولناه هنـا هو محاولة رسم خط بياني لمسار الطرح الذي تقدمه هذه المجلات في خريطة ثقافية شاسعة. واذا كنـا قـد اهملنـا عددا من المجلات التي لعبت دورا هاما«الآداب» « المكشوف » واليوم « افاق » فـان الاساسي بالنسبة لنـا هـــو الكشف من ضمـن دراسـة هذه التيارات الثقافيـة عـن آداليـة البحث عن دور داخل حركة التحرر .

الدور الممكن

يمكن أن نستنتج من خلال هذه الملاحظات اربع نقاط اساسية :

١ ـ لقد عبرت هذه المجلات بنسب متفاوتة ، ومن مواقع مختلفة عن ضرورات التغيير الاجتماعي ، اذ ينظـــر غالبا الى هذا التغيير بوصفه تحديـا للبقاء . غير أن مواقع النظـر الى كيفية هذا التغيير ودلالاته تختلف باختلاف الموقع الايديولوجي ـ الطبقي .

ففي حين يرتفع طرح تحديث المجتمع ـ ادخال القيم الليبرالية اليه ـ يرتفع في المقابل شعـار الثورة الاجتماعية بوصفهـا مدخلا لهذه العمليـه . اذا كـان هذان الشعاران ، ميداني استقطاب ، فانهمـا غير جامدين . اي ان طرفيهمـا لا يعبران عن ثابت لا يتغير . بل هما داخل جدل البحث الذي يؤدي الى نتائج متشابهة في بعض الاحيان رغم تباعـد نقاط المنطلق او الـى نتائج متباعدة رغم الانطلاق من نقطـــة واحـدة (١٦).

٢ ـ لقد عبرت هذه التيارات عن ضرورة تثوير وتجديد الكتابة. فقدمت محاولات عديدة في النقد والشعر والقصة والرواية تعبر في الواقع عن قدرة على الوصول الى التجاوز الضروري . ان هـــذا الهاجس المركزي الذي يوحد ، يحمل دلالة عامة . دلالة البحث عـن طرائق جديدة للوصول الى تعبير جديد عن الذات .

٣ ـ المجلة الثقافية هي اداة تعبيـر حديثة ، تجد اليوم مبـرر انتشارهـا في تزايـد وتأثر التعليم ، وفي نمو المدن ، والعودة الـى ممارسـة ثقافـة اجتماعية عامة . لكـن داخل هذه الاداة الحديثة ، وجد الفكـر نفسه في عمليـة بحث مضنية عن اصالته، اي قدرته علـى الاجابة على اسئلة الواقع الحادة .

من هنا ، هذه الانعطافات داخل الرؤيـة السياسية والثقافيـة في هذه المنابـر الثقافيـة .

واذا كان سقوط مجلة « حوار » قد كشف عن ازمة الفكـــر الاستغرابي التحديثي وعن عدم جدارتـــه ، فانهـا التحدي لقـــدرة اطراف الطبقات الوطنيـة على صياغـة اجابتها من موقع ثوري .

٤ ـ تشير هذه المسيرة الثقافية الى عدم تناسق المعادلة تماما . معادلة عضوية المثقف وتعبيريته . ان هذا ، هو واقع كل ممارسة ثقافية . تتراجع او تتقدم في لحظات تاريخية . لكنها تبقى في اخر تحليل تعبيرا عن توتر البحث عن دور نضالي ، لا يتحقق الا داخل المهمات التي تطرحها الحركة الجماهيرية . دحر الامبريالية وسحق هيمنتها بشكل نهائي وكامل ، في سبيل بناء استقلال وطني حقيقي .

الياس خوري

* * *

اشارات

١ ـ فيلب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، الجزء الاول، بيروت ، المطبعة الادبية ١٩١٣ . ويشير هذا الكتاب الى ان الجريدة التي انشاها بونابرت في مصر سنة ١٧٩٩ كانت تسمى الحوادث اليومية .

٢ ـ دومينيك شوفاليه : « مجتمع جبل لبنان في فترة الثورة الصناعية في اوربا » باريس ١٩٧١ ص ٢٠٠ .

٣ ـ يشير التقرير الذي كتبه اللورد كرومر سنة ١٩٠٥ بعد ٢٥ سنة على الاحتلال البريطاني لمصر ، الى نتائج السياسة الاستعمارية بالكلمات التالية : « الفرق واضح لكل انسان ترقى ذكرياته الى عشر او خمس عشرة سنة . بعض احياء القاهرة التي كانت سابقا خلايا لعمال صناعات مختلفة : الحياكة ، الغزل ، الجدل ، صناعة الاوشمة، الصباغة ، صناعة الخيم ، صناعة الاحذية المحلية ، الخ ..هذم الاحياء تقلصت او انقرضت . ويرى اليوم مكان هذه المشاغل التي كانت مزدهرة مقاه ومحلات صغيرة لبيع الطقاطيق الاوروبية » . في انور عبدالملك : مصر مجتمع عسكري ـ دار الطليعة بيروت ـ ص ٢٠ .

٤ ـ يشير محمد يوسف نجم في دراسته العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث الى تعاقب النموذجين التركي والمصري في الاصلاحات المصرية والعثمانية . لكن هذين النموذجين هما في الاساس نسج على منوال نموذج غربي واضح . في الفكر العربي في مئة عام . منشورات انيد المئوي ، الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٦٧.

٥ ـ يقدم محمد عمارة سيرة مختصرة لحياة واعمال الطهطاوي في مقدمته لاعماله الكاملة . الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي . دراسة وتحقيق محمد عمارة . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٣ .

٦ ـ هشام شرابي : المثقفون العرب والغرب .دار النهار للنشر. بيروت ١٩٧١ ـ ص ١٣١ .

٧ ـ انور عبدالملك هو اول من ركز على هذه النقطة في اية مقارنة مفترضة . الفكر العربي في معركة النهضة . دار الاداب . بيروت ١٩٧٤ .

٨ ـ تقوم النموذجة التي يقترحها عبدالله العروي في كتابه الايديولوجية العربية المعاصرة . ترجمة محمد عيتاني ،دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٠ ، مثالا اخذ على نموذجة خارجية . الشيخ ، الليبرالي، والثقفي ، التي نفترض وعي الغرب مقياسا وحيدا للجدل داخل الحقل الايديولوجي العربي .

٩ ـ يقدم محمود امين العالم في تعقيبه على بحث د . انور عبدالملك « الخصوصية والاصالة » المقدم الى ندوة الكويت « ازمة التطور الحضاري العربي » نيسان ١٩٧٤ م الى ضرورة الكشف داخل تياري الاصولية والحداثة عن مصالح الطبقات الاجتماعية المتصارعة . في الاداب ١٠ ايار ١٩٧٤ .

١٠ ـ جمال الدين الافغاني ومحمد عبده : العروة الوثقى : دار الكاتب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٧٠ .

١١ ـ يقول الشيخ مصطفى عبدالرازق في مقدمته للعروة الوثقى، المرجع السابق ،« اعلن في الجريدة الرسمية المصرية ان كل من توجد عنده العروة الوثقى يقدم خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها » .

١٢ ـ صدر العدد الاول من مجلة الطريق في بيروت ـ ٢٠ كانون الاول ١٩٤١ ـ وهي مجلة « تصدرها عصبة مكافحة النازية والفاشستية في سوريا ولبنان » بادارة عمر فاخوري وانطون تابت .

١٣ ـ صدر العدد الاول من مجلة الاداب في ١ كانون الثاني ١٩٥٣ .وكان يراس تحريرها د . سهيل ادريس الذي لا يزال الى الان يشغل هذه المهمة .

١٤ ـ صدر العدد الاول من مجلة شعر في شتاء ١٩٥٧ . وكان يراس تحريرها الشاعر يوسف الخال . وقد صدرت بمقدمة لملكيش.

١٥ ـ صدرت مواقف سنة ١٩٦٨ . ويراس تحريرها الشاعر ادونيس

١٦ ـ تقدم مجلة « شؤون فلسطينية » مثالا حيا عن قدرة الفكر الملتزم على التوظيف داخل حركة ثورية . من هنا تعددها الفكري وصرامتها العلمية .

صدرت حديثا عن الدار الاهلية

للنشر والتوزيع ـ بيروت

العصافير

المجموعة القصصية الثالثة

للقاص السوري

ياسين رفاعية

١٣٠ ص ٥ ل ل